

القبائل العربية بالمغرب حسب مخطوطة لابن العياشي وزير السلطان مولاي إسماعيل (1139هـ/1727م)

عبد الهادي الغازي

على نحو ما قام به العالم المصري تقي الدين أحمد بن علي المقرئ (ت 845-1442) في كتابه «البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب»، قام العالم المغربي أبو عبد الله محمد ابن العياشي بالكتابة حول القبائل العربية في المغرب في تأليف يحمل عنوان «البستان في نسب إخوان سيدنا ومولانا زيدان»⁽¹⁾، وكما استمد الأول معلوماته من شيخه العلامة ابن خلدون فقد وجدنا أن الثاني بدوره يعتمد بالأساس على كتاب «العبر» لابن خلدون .

وقد ألف بلعياشي كتابه على شرف الأميرة لآلة حليمة زوجة السلطان مولاي إسماعيل ووالدة نجله الأمير زيدان الصغير باعتبارها سيدةً تنتسب لقبيلة سفيان التي هي بطن من بطون أئبج ابن ربيعة بن نهيك ابن هلال بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان ابن مضر ابن نزار بن معد بن عدنان.

ومما يذكر عن اهتمام الأميرة حليمة هذه أنها من السيدات الفضليات اللاتي أسهمن في إغناء خزانة جامع القرويين، فلقد وجدنا من نوادر الخزانة المذكورة جزأين ضخمين تضمنا وثائق قانونية في شأن أصول أملاك المراكب

من بلاد جبر بأرض البيض تمّ تحبيسها على الخزانة من قبل هذه الأميرة عام 1111 هجرية.

ويبدو أن الأمير زيدان كان مكلفاً من لدن والده السلطان مولاي إسماعيل بمباشرة الشؤون الخارجية، الأمر الذي يفسّره وجود بعض الخطابات منه إلى حاكم جنوة حول إرسال بعثة مغربية تطلب إلى الحاكم المذكور أن يعتني بالبعثة المغربية ويقضي الغرض الذي من أجله راحت البعثة، وكانت الرسالة تحمل تاريخ أول محرم 1112هـ/18 يونيو 1700⁽²⁾.

أما عن الأميرة لالة حليلة فقد ورد اسمها ضمن اللائحة الطويلة للذين واللاتي حُملت إليهم الهدايا السنّية من لدن السفير البريطاني شارلس ستيوارت عام 1719 بمكناس .

لقد كان اسمها إلى جانب السلطان مولاي إسماعيل وزوجته أمّ العزّ ويلقيس وخنائة، وقد اختصر اسمها هكذا لالة «هيمّة» ونعتت بالأميرة الأولى. ومن الطريف أن نجد اسم محمد ابن العياشي ضمن هذه اللائحة التي تنعته بأنه كاتب الملك⁽³⁾.

ومن حسن حظّ ابن العياشي أن يقوم بتأليف هذا الكتاب الذي كان الأثر الوحيد الذي حفظ له الذكر بعد المصير الذي كان ينتظره-هو وآخرون-بعد وفاة السلطان العظيم مولاي إسماعيل !!

لقد كان ابن العياشي كاتباً وفقيهاً ومدرساً وعالمًا، بل كان رجل دولة له دوره في حلّ القضايا الكبرى التي شغلت الرأي العام في المغرب رداً من الزمان.

وعندما يذكّر الباحث اسم ابن العياشي صاحب «البستان» لا بدّ وأن يخطر بباله السؤال عما إذا كانت له صلة بالمجاهد العياشي المتوفى عام 1051هـ/1641م، والذي ينتسب لأصله العربي من بني مالك وبني سفيان والذي

فقيه
الشيخ
القادر

بسم الله الرحمن الرحيم وكأخول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم أو أحرل أحد

إلى أن يلقى شتم أو ضرب جنوة ثم لا يعل على من أبع الهرة لم يبع الله ويرسوله لغيره
أما بعد فاعلم أننا لم نكتب الشك إلا لم نعرف من هو هذا الكلب الذي تركنا الإقليم وأزالتنا من
دِيننا دِيننا زدي رغبنا هو وأخوانه ولعلوا مثلاً أن نبعث لهم حامله العبراني على جميع سنا الحشوي
باجبنا هم إلى لك وقبلنا رغبنا فيه ومعتنا، لكن نأخذنا اختبرنا، وجربنا، عافلا وعارفاً بأخوالنا هوناً ولا يقا
بهم ولا أننا نعلمنا واستوى به خير أوردنا، لعلنا مفا منّا عن ما مع جوانبنا لحيضت دِيننا زدي راج نصرنا
دِيننا دِيننا زدي ولا يتر عننا ما ابداً على أننا اردنا أن نعمل مع الغنيمة عملنا، مع اخيه دِيننا دِيننا زدي راج
دِيننا دِيننا زدي عننا هاتنا مع راسه وكذا هو من جلته اليقيني أنما هو متاجر راسه ولا يقضه هاتنا
الكلد الكلاته لم يغير على برافنا ونبعث خرمنا وازاراد الفدوم لبلاد، فلما يبعه لغيره وقد توخشا خرمنا
وارجعنا له عن ما يبعنا كذا يداو مرض، ولما يقدم لحضرتنا العلية بلاءه بلان في مثلاً الكالين فيبادرنا به دافنا إلى
حاجبنا سنا الحشوي معه ولا يتر عننا راعوا من دهم فربا ارشاد الله تعالى ولا نقول كلع من اتبع الهرة وعقب به
أول محترم الحرام فاتح سنة اثني عشر ومائة واليه



كان له دور هام في تحرير بعض الثغور المغربية⁽⁴⁾، أو عما إذا كانت له صلة بالرحالة أبي سالم العياشي المتوفى سنة 1090هـ / 1679م والذي ينتسب على ما يذكر لآيت عياش⁽⁵⁾.

وأعتقد - حسبما تعطيه القراءة الأولى للتأليف - أن صاحبنا بلعياشي له صلة بالمجاهد العياشي، فهو عربي من سُفيان. ومن ثمة نجده - من خلال المخطوطة - إلى جانب العرب فيما حلّ بهم من ويلات. ونجده من جهة أخرى يميل إلى تجنب كل ما من شأنه أن يحدث تصدّعاً بين العرب والأمازيغ، فهو يروي الحديث الذي أورده الشطبي في كتابه «الجُمان»، عن النبي ﷺ: «إن لي أنصاراً ولذريتي أنصاراً، فأنصاري الذين آووا ونصروا، وأنصار ذريتي البربر الذين يأوون ذريتي ويكرمونها»⁽⁶⁾.

لقد قلنا: إن لابن العياشي - موضوع حديثنا - دوراً في حلّ القضايا الكبرى، وأقصد في صدر ما أقصده، القضية التي عرفت في التاريخ تحت اسم «قضية العبيد» والتي حرّرت فيها عشرات المراسلات ودوّنت حولها التأليف والفتاوي التي كان منها ما وجه إلى علماء الأزهر الشريف بمصر لاستمراج الرأي حول مضامينه.

وتتلخّص القضية في رغبة السلطان المولى إسماعيل (1671هـ/1727م) تكوين جيش قوي يكون قادراً على طرد الأجنبي من سائر الثغور المغربية المحتلة ويكون قادراً كذلك على توحيد البلاد تحت قيادة واحدة.

لقد كان بلعياشي في صدر من استمّزج رأيهم حول الجواب عن سؤال: أي قبيلة يتّخذ المغرب منها جنده؟ فقال ابن العياشي: «إن المنصور السعدي (1012-1603) كان يتوفر على جيش ما لبث أن تفرق في القبائل فعليكم الآن جمعه واتخاذُه جيشاً للخدمة لأنه مملوك لبيت المال».

وهنا عهد السلطان مولاي إسماعيل إلى بلعياشي بالنيابة عنه في هذه المهمة الدقيقة وسمّاه قاضي القضاة، ولم يخف ابن العياشي من المسؤولية

العظيمة الملقاة عليه ووجدناه يستعين بوكيل الملك الباشا عليّش الذي أخذ في شراء العبيد الموزعين في القبائل المغربية التي كانت تتنافس حول امتلاك العدد الأكثر من العبيد !

ويبدو لي أن قاضي القضاة بلعياشي كان يعرف جيداً بأن له خصوماً سياسيين يترصّون به الدوائر، لكنه كان شجاعاً مؤمناً بأفكاره ولذلك فما كان يهتمّ شيء أكثر من أن يكون هو مقتنعاً بأفكاره مرتاحاً مع ضميره.

ولم تمرّ شهور حتى التأم هذا الجيش وشاهد الناس آلاف الجنود يقفون إلي جانب السلطان المولى إسماعيل وأمامهم جميعاً صحيح الإمام البخاري يؤدّون القسم عليه بأنهم يعملون للصالح العام، فسُمّي الجيش منذئذ بجيش البخاري⁽⁷⁾.

فماذا عن جديد هذه المخطوطة فيما يتصل بالقبائل العربية ومنازلها⁽⁸⁾ ؟

يعتمد بلعياشي على ما قدّمه ابن خلدون⁽⁹⁾، وعلى ما كتبه كذلك ابن حزم في كتابه : « جمهرة العرب »⁽¹⁰⁾، ولكنه يقوم بمجهود مشكور عندما يحسن جمع أطراف الموضوع في اختصار وتركيز وتوضيح كذلك، مضيفاً إلى المعلومات التي استقاها من المصادر السابقة ما يجعلنا نشعر بأن الرجل ليس مجرد ناقل يردّد ما قاله الأوّلون، ولكنه يُغني الموضوع بما استجدّ عنده من إفادات، وخاصة فيما يتعلق بالمواقع التي اتخذها العرب لمقامهم في عصره، مما قد يساعد على رسم خريطة جغرافية لمعرفة خطوط تحرك العرب من الجزيرة العربية، من الطائف إلى شاطئ النّيل، إلى إفريقية ومرورهم ببرقة، ثم استيلائهم على ما كان بيد صنهاجة بإفريقية من المدن والقرى والضواحي واستقرارهم بها إلى المبادرة التي قامت بها دولة الموحّدين لدعوتهم للمغرب.

بعد هذا يقوم بتقديم طبقات العرب بمن فيهم :

الطبقة الأولى : العرب العاربة الذين أخذوا وصفهم من أنهم أول من تكلم بالعربية، ومن هؤلاء قوم باليمن والحجاز والشحر الذي يجلب منه العنبر المضروب به المثل في الجودة كما يلاحظ بلعياشي.

ثم تأتي **الطبقة الثانية :** وهم العرب المستعربة، وقد سُموا هكذا لأنهم أخذوا اللسان العربي ممن قبلهم من العرب .

وأما عن **الثالثة :** فهي الطبقة التي نُعتت بالتابعة للعرب وهم شعوب نزار بن معد بن عدنان .

وأخيراً تأتي **الطبقة الرابعة** وهم المستعجمة أي العرب الذين خالطوا العجم بسبب ما كان لهم من الظهور في الدولة الإسلامية، ولما استعجمت ألسنتهم وتحولت عن اللسان المضري سمّاهم علماء التاريخ عرباً مستعجمة.

ويظهور الإسلام الذي أصبحت سائر البلاد المفتوحة وطنه وجدنا أن طائفة من العرب تزحف نحو بلاد المغرب ناشرة عقيدة الإسلام ولغة القرآن مما عرفناه في كل كتاب تحدث عن تاريخ الغرب الإسلامي.

وهكذا فإلى جانب الفاتح العظيم عقبة بن نافع الذي وصل سنة 662هـ/682 البحر المحيط ببلاد أسفي أو ماسة فأدخل قوائم فرسه في البحر ثم قال : «اللهم إني لم أخرج بطراً ولا أشراً وإنك لتعلم أنا نطلب أن تُعبد ولا شريك لك في الأرض...» (11).

إلى جانب عقبة وما تبعه من أقوام، قام آخرون بهجرات فردية من أمثال الإمام إدريس بن عبد الله الذي وصل المغرب بعد نحو من قرن من وصول عقبة بن نافع، فأسس الدولة الأولى في المغرب الأقصى (12).

إلى جانب ذلك تمت هجرات أخرى غيرت معالم الخريطة البشرية للمغرب الكبير. وقد ابتدأت عندما كان يحكم الفاطميون مصر وشعروا بأن الصنهاجيين المتأمرين باسمهم في إفريقية أخذوا يتمردون عليهم ويستبدلونهم بالخلافة في بغداد !

وهنا خطرت فكرة للوزير الحسن بن علي اليازوري (441هـ/1049م) الذي وجدناه يستنفر القبائل العربية المقيمة بصعيد مصر ليرسل بهم إلى إفريقية للتشويش على « المتأمرين » المشار إليهم .

ولم يلبث الصنهاجيون أن اصطدموا بأولئك العرب الذين كانوا يطمحون فعلاً إلى السلطة ووجدناهم : بني سليم وبني هلال يتوزعون أطراف المغرب الأدنى⁽¹³⁾ .

ولا بدّ، ونحن نذكر وقوف الناصر بن علّناس إلى جانب عرب الأتّيج ضدّ بني عمهم عرب زغبة، أن نشير إلى وقوف البابا غريغوار السابع إلى جانب الناصر المذكور، حسب ما تكشف عنه رسالة تاريخية نقلنا صورتها عن وثائق حاضرة الفاتيكان، كما نقلنا نصوص رسالة صارخة من يوسف بن تاشفين إلى الناصر بن علّناس صاحب قلعة بني حمّاد آنذاك⁽¹⁴⁾ .

وفي أعقاب هذه الأحداث صفا الجوّ في المغرب الأقصى لعبد المومن ابن علي 541هـ/1147 فنهض لفتح ما بقي من المغرب الأوسط والمغرب الأدنى وهنا كان اصطدامه بالزعماء العرب، وكان له لقاء فاصل معهم .

وقد احتفظ لنا التاريخ بخطاب حرر بتلمّسان بتاريخ أول ربيع الثاني عام 548هـ ووجه من الخليفة عبد المومن إلى أهل مُراكش يخبر بحركة الموحّدين في البلاد الشرقية وظفرهم على الأعراب بناحية سَطِيف .

ومن خلال هذا الخطاب نعرف عن اتجاه الموحّدين إلى فتح القلعة سالفة الذّكر وقسنطينة. ونعرف عمّا كان يدور بين الموحّدين وبين الأعراب من مواجهات وأخبار عن « استنفار الأشقياء » (الذين يعني بهم حكام الجُزر

الشرقية [الباليار] الدّاعين لبغداد) لجميع مَن ببلاد إفريقية وما يتصل بها إلى جهات الإسكندرية... وأتت قبائل هلال بن عامر من عرب اليمن، ولم تزل جيوشهم على جهات قسنطينة تتوارد بوادي الأقواس، بجهات سَطِيف إلى أن خاطبونا بعزمهم على الغزو ونحن إذّاك بِمَتِيجَةٍ. وعندما أشرقت شمس الضحى، كانوا قُطْب الرّحى، واستمر القتل فيهم مسيرة أربعين أو خمسين من الأميال، فذلّ المأمور منهم والأمر وحاك الويلّ بهلال بن عامر! ثم انقسمت جيوش الموحّدين صبيحة اليوم الثاني إلى أقسام أخذ كل منها سبيلاً غير سبيل غيره حتى انتهوا إلى أوائل بلاد إفريقية ⁽¹⁵⁾».

وفي رسالة لاحقة من فحْص مَتِيجَةٍ بتاريخ الإثنين 24 من ربيع الثاني عام 555هـ، من الخليفة عبد المومن إلى طلبة فاس أكّد فيها خبر هزيمة عرب إفريقية ودخولهم تحت طاعة الموحّدين ⁽¹⁶⁾ وهي من إنشاء أبي القاسم القالمي.

«... وكان من هذا القَبيل الرياحي، فخذُ منهم يُعرف ببني محمّد لاحظتهم السعادة بطرف غير خَفِي... وهي وافرة العدد... زعيم أمرها أبو يعقوب يوسف بن مالك وفقّه الله...».

وأما جُشَم فذهبت بأمرها أيضاً مذهب الانتقال، وكل من هذين الحَيَيْن الجُشَمي والفخذ الرّياحي عزم على أن يحتطّ بالمغرب.

وأما قبائل الأثْبُج وزُغْبَة فوصل أعيانهم يمدّون يد الاستتابة...

وقد تحدّث تاريخ ابن صاحب الصلاة، وهو معاصر للأحداث عن استياق قبائل بني رياح وبني جُشَم وبني عديّ من بني هلال نحو المغرب بأعدادٍ يضيق بها الفضاء على حدّ تعبيره ⁽¹⁷⁾.

وقد رأى الخليفة عبد المومن بعد أن نجحت خطّته أن يُكوّن من تلك القبائل العربية جيشاً يستعين به على مواجهة العدوان المتوالي في الأندلس

على المسلمين على ما نقرأه من خلال السفارات والوفادات التي كانت تتردّد على الخليفة عبد المومن⁽¹⁸⁾.

ولما توفي عبد المومن (10 جمادى الآخرة 558هـ/17 مايو 1163) سار ابنه وخلفه أبو يعقوب يوسف على نهج والده في جلب العرب واستئناسهم وتسخيرهم في مصالح الدولة.

ومن هنا سجّلنا عدداً كبيراً من القصائد التي غيّرت اللهجة في الحديث عن بني هلال على ما نقرأه في رائية الشاعر الفحل أبي العباس الجراوي التي يقول في مطلعها :

أحاطت بغايات العلّاء والمفاخرِ على قدّم الدنيا هلال بن عامر!
وقد كان من القصائد الرائعة البائية التي يقول الطبيب الشاعر ابن طُفيل في مطلعها :

أقيموا صدورَ الخيل نحو المغارب لغزو الأعادي واقتناء الرغائب!
وكذلك القصيدة اللامية التي يقول فيها الكاتب ابن عيَّاش من جملة ما يقول :

بَنِي العَمِّ من عليا هلال بن عامر وما جمعت من باسلِ وابنِ باسل!
ونتيجة لكل هذه الخطابات وجدنا أن الأرض المغربية ترجّ بألاف من البيوتات العربية.

لقد كان عدد الخَيْلِ الواصلة من إفريقية أربعة آلاف فرس ومائة وخمسين حملاً من المال الصامت، وكان الذي وصل من تِلْمَسَان ألف فرس وخمسين حملاً من المال الصامت على حدّ تعبير المؤرخ ابن صاحب الصلاة الذي يحكي عن الأمر الخلافي بالاستعراض الذي تم بالفعل يوم 2 ربيع الثاني

566هـ/13 دجنبر 1170⁽¹⁹⁾، وقد أحضرت الطبول المربعة الأشكال من أيام المهدي وأضيف إليها من غيرها ما اكمل فيها مائة طبل، واستوى أمير المؤمنين على صهوة فرسه الأشقر الأغرّ، والوزير أبو العلا راجلاً على قدميه لصق ركابه وبين يديه، وفي ساقية أمير المؤمنين على مقربة منه السيد أبو عبد الله محمد، وإلى جانبه سائر الأخوة الصغار، وهو على هيأته المؤيدة والطبول قاصفة، وأقبلت عساكر العرب من أهل إفريقية، فأشار إليهم أن تحمل العساكر الوافدة بعضها على بعض جرياً ولعباً وفرحاً وطرباً، وأخذ العهد عليهم، ونزلوا في ضيافته خمسة عشر يوماً، وقد صنع لهم ما تقدمت العادة به : نهراً من رُبٍّ ممزوج بالماء يشربون ويطربون .

فماذا بعد هذا عن مواقع هذه القبائل ومنازلها في مخطوطة ابن العياشي؟

لقد كان في الواردين البطن الكبير الذي كان يُعرف قبل دخوله إلى المغرب بالأثبُج وبالهلاليين، وتسمّوا بعد دخولهم المغرب بسُفيان، وقد ذكرهم ابن خلدون بالأسامي الثلاثة وهم الذين عمّروا منطقة أزغار وما والاها من فحْص العرايش إلى سَلّا إلى الحوض المجاور لبلد «مختار» من حَوْز مكناسة الزيتون.

ويستمر بلعياشي في ذكر القبائل العربية فيذكر أن من بطون بني هلال بني رياح، وأن يعقوب المنصور لمّا نقلهم إلى المغرب كان في صدرهم مسعود ابن سلطان ابن زمام رئيس الدواودة، الذي أنزله المنصور هو وقومه في بلاد الهَبْط بين قصر كَتّامة المعروف بالقصر الكبير إلى أزغار إلى ساحل البحر الأخضر (يعني بحر الظلمات) حيث استقروا هناك على نحو ما كان بقبيل الأثبُج الذي من بطونه سُفيان ومن حَفَدَتِه عشيرة الضحّاك والعاصم وطليق⁽²⁰⁾.

وفي معرض حديث ابن العياشي عن المَعْقِل قال نقلاً عن ابن خلدون :
... أن هذا القبيل لهذا العهد أُوْقِر قبائل المغرب، وأن مواطنهم مفترقة
بالمغرب الأقصى، فبعضهم مجاور لبني عامر من زُغْبَة في مواطنهم من أرض
تلمسان.

وأما بنو حسان - والبرابشة منهم - فهم من فخذ ابن محمد بن مَعْقِل
ومواطنهم من دَرْعَة إلى المحيط ويتولون بلاد نُول قَاعَة إقليم السّوس التي
تنسب إليها الدَّرَق الملكية التي وصفها الشريف الإدريسي.

وكان دخول هذا الحيّ من المَعْقِل إلى المغرب مع الهلاليين في عدد
محدود، واعترضهم بنو سليم على «الحَوْز» فأزعجهم عنه وتحيزوا إلى
الهلاليين فنزلوا فيما يلي «مَلْوِيَة» ورمال تافيلالت فكثروا في صحاري
المغرب الأقصى بسبب جوارهم للهلاليين، وقد جاوروا أيضاً زَنَاتَة وكانوا
أحلافاً لهم، وقد انغمست فيهم قبائل من رياح ومن الأثْبُج، ومنهم أولاد
سَجِير الذين منهم البطن الذي بِحَوْز مكناسة الزيتون، كما أن منهم أولاد عبد
الله. ومواطنهم ما بين تلمسان إلى وَجْدَة إلى منتصف وادي مَلْوِيَة، وتنتهي
رحلتهم إلى قصور تَوَات. وأما الثَّعَالِبَة فهُم الذين يوجدون ببسيط مَتِيجَة
بالمغرب الأوسط.

وعن بني منصور من المَعْقِل نذكر أن مواطنهم تُحومُ المغرب الأقصى ما
بين مَلْوِيَة ودَرْعَة، ومن جملة بطونهم الأحلاف في شرق المغرب.

وأما الشَّبَّانات فإن مواطنهم كانت بنواحي مَلْوِيَة إلى أن استصرخهم
السلطان أبو الحسن علي الزكندري صاحب السّوس⁽²¹⁾.

ولم يَفْت صاحب «البستان» الحديث مرتين اثنتين عن التمرّد الذي قام
به بنو غانية أصحاب الجُزُر الشرقية على ما أشرنا سالفاً، وكانوا عُمَلاً
ليوسف بن تاشفين وأولاده من بعده، لقد قصدوا بأسطولهم في نحو ثلاثين
سفينة إلى بجَايَة بعد ظهور المرحّدين واحتلوها عام 581 هـ/1185م،

عندها قام عرب إفريقية بمناصرة المتمردين، الأمر الذي أغضب الخليفة المنصور، فكانت له مواقف صارمة إزاءهم، وقد انتهى الأمر بهم إلى الطاعة حيث وجدنا عدداً كبيراً منهم ينقلون إلى المغرب وفيهم طوائف من قبائل جُشَم ورياح والعاص وسفيان، فأُنزل سفيان هذه بسائط تَامَسْنَا وأنزل رياح بأزغار وأرض الهَبْط وأنزل بني جابر بسائط تَادَلَا، وأنزل الخُلْط فيما بين تَامَسْنَا وتَادَلَا إلى حَوْز مُرَاكَش.

وعندما ذكر بلعياشي في «البستان» ما كان ينسب للعرب من تخريب وتشغيب ردّد القولة المنسوبة للمنصور الموحّدي والتي تقول : إن إدخاله العرب للمغرب كان أول ما ندم عليه من ثلاثة أمور ⁽²²⁾.

ويعود صاحب «البستان» لقبيل سفيان، وهم من بني هلال كما قلنا، فيذكر أنهم حضروا مع يعقوب المنصور غزوة الأرك (9 شعبان 591هـ/18 يوليو 1194) التي شهدت بدورهم في ذلك الفوز العظيم الذي يقول فيه أبو العباس الكراوي:

هو الفتح أعياء وصفه النظم والنشرا وعمّت جميع المسلمين به البُشرى

لقد كان على رأس سفيان شيخهم جرّمون الذي خلفه من بعده زعماء آخرون كان منهم مسعود بن كانون، ومن تبع هؤلاء، وقد تميّزوا جميعاً بالجزالة والبسالة في حرب الأعداء على حدّ وصف ابن خلدون .

وقد اتصلت الرياسة بالنسبة لهم، في بني جرّمون إلي عهد السلطان أبي عنان حيث وجدنا أن الشيخ الذي كان يتولّى أمرهم يحمل اسم يعقوب بن علي بن منصور بن عيسى بن يعقوب بن جرّمون .

وحيث إن تأليف «البستان» كان برسم الأمير زيدان - وأمه من آل سفيان - فقد حرص صاحب «البستان» على تتبّع أخبار رجالات هذا البيت الذي كان

من رجاله في حدود المائة التاسعة الشيخ أبو العباس أحمد الحارثي السفياني نزيل مكناسة الزيتون ورفيق الشيخ ابن سليمان الجَزُولي صاحب كتاب «دلائل الخيرات» ⁽²³⁾ وأستاذ أبي عبد الله محمد بن عيسى الفهدي شيخ الطريقة العيسوية والشيخ أبي الزواين والشيخ المختاري.

هذا إلى الذي ظهر أيضاً من شخصيات بني سُفيان أثناء المائة العاشرة، من أمثال أبي زيد عبد الرحمن السفياني العاصمي الشهير بسُقَيْن الذي لم يَخُلْ كتاب من الحديث عنه سواء في المغرب أو المشرق ⁽²⁴⁾، وأمثال أبي الحسن ⁽²⁵⁾، وأمثال القائد العظيم إبراهيم السفياني الذي كان يؤازر وليّ عهد السلطان أحمد المنصور بفاس محمد الشيخ، وكذا ولده محمد بن إبراهيم قائد أزمور الذي كان يتوفّر على أكثر من ألف فارس كلهم من بني سُفيان .

ولما توفي أحمد المنصور الذهبي ارتحل قبيل سُفيان من دُكّالة إلى المغرب فألّفوا قبيلة مُختار، وما زالت بقية من أحفاده بفاس وسلا وغيرهما إلى هذا العهد. يقول صاحب «البستان» :

«ومن هذا الحي من سُفيان قبيلة «المعارف» الذين ينتسبون للأمير عريف ابن يحيى السويدي ، الوزير والسفير الشهير الذُكْر في عهد بني مَرِين وخاصة أيام السلطان أبي الحسن وابنه أبي عَنان ⁽²⁶⁾» .

ومن هذا البيت السويدي ينحدر الشيخ علي ابن حسين الذي صاهر أمير المؤمنين السلطان المولى إسماعيل جد الدولة العلوية على ابنته السيدة حلّيمة، والدة الأمير زيدان التي تركت لها بمدينة فاس أثراً معمارياً لا تبليه الأيام ⁽²⁷⁾ .

وبعدَ هذه الإمامة بـ «البُستان»، هل لنا أن نقول : إننا قادرون على رسم خريطة دقيقة لمنازل العرب في الديار المغربية وأقصد بالديار المغربية مجموعَ الفضاء الذي امتدّت إليه دولة الموحّدين ودولة بني مَرِين؟ ذلك ما

كان الحافز لي على قراءة هذا المخطوط من جديد، وذلك أيضاً ما كان وراء مراجعة ما قاله العلامة ابن خلدون وما ردّده مؤلفون آخرون قبل ابن خلدون وبعده، وقد وجدت الجواب عما كُنْتُ أريد من خلال هذا «البستان» نفسه على نحو ما تلمسناه ونحن نتصفّح مصادر أخرى لتاريخ المغرب.

لقد كان الجواب يتلخّص في أنه من المتعذّر إن لم نقل من المستحيل أن نصل إلى رسم هذه الخريطة بأمانة ما دمنا نقرأ-عبر مسيرة التاريخ الطويل-أن القبائل لم تكن تستقرّ في مكان على الدوام، ولكنها كانت تتحوّل وتنتقل عن طوعية واختيار أحياناً، أو عن قسر وإجبار تارة أخرى .

لقد كان مما قاله صاحب البستان :« ... وأجلوا الكثير من قبائل العرب من بلادهم ومواقع قرارهم وانقطعت السبيل ... وكثر الهرج بين القبائل حتى فنى الكثير من قبائل العرب».

ونتيجة لكل ذلك وجدنا أن الأسماء أيضاً تدخلها التغييرات على مرّ الأيام، فقد يتحوّل الاسم العربي إلى اسم عليه مسحة لهجة أخرى والعكس صحيح، أي إن بعض الأسماء البربرية يتحوّل إلى أسماء عربية، الأمر الذي يزيد في مضاعفة وضع علامات الاستفهام ! وعلى ضوء هذا نلاحظ أيضاً أن لغة التعامل اليومي نفسها قد تتحوّل من عربية إلى لهجة أخرى، ومن تلك اللهجة إلى عربية، وهذا ما يحمل على الشك أيضاً في قدرتنا على وضع خريطة أمينة نزيهة لمنازل البربر أيضاً.

ولهذا فإن المتتبّع للموضوع يقف أمام إجماع الباحثين على أنه ليس هناك اتفاق من المؤرّخين على تحديد موقع واحد من معالم هذه الفسيفساء التي تتكون منها هذه الشريحة أو تلك في بلاد المغرب، وإن أصدق ما يمكن أن يقوله المرء دون أن يخشى أي اعتراض عليه هو أن صفة المغربي تظل الصفة الصادقة الوحيدة والسليمة التي تُطلق على المواطنين بديار المغرب.

وبعد، فإذا كان هناك من يريد أن يعرف عن تغلغل القبائل العربية بالمغرب فما عليه إلا أن يقرأ مخطوطة « البستان » للوزير بلعياشي ليتأكد

من أن معظم أسماء الأسر التي نسمع عنها في الجزيرة العربية شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً، توجد لها بالمغرب خؤولة وعمومة، ومن ثمة فإن دراسة تاريخ العرب بالمشرق دون ما التفتات إلى المغرب تعتبر دراسة مبتورة، والعكس صحيح، فإن دراسة تاريخ ساكنة المغرب دون العودة إلى الجذور الأولى تبقى دعوى غير ذات جدوى.

الهوامش

- (1) توجد من هذا المخطوط عدة نسخ سواء بالخزانة الملكية أو الخزانة العامة ونحن نعتمد على النسخة المصورة عن الخزانة الملكية وهي تحمل رقم 12119 وتحتوي على 145 ورقة من الحجم الكبير.
- (2) عبد الهادي التازي: "التاريخ الدبلوماسي للمغرب"، ج 9 - ص 265-266، رقم الإيداع القانوني 1986/25، مطابع فضالة، المحمدية .
- (3) S.I.H.M, France T VII et 2 P.D de Cossé Buissac et Ch. de la Véronne 1970.
- (4) عبد اللطيف الشاذلي : "الحركة العياشية"، منشورات كلية الآداب بالرباط 1982.
- (5) الناصري : "الاستقصا"، ج 6 ص 24-73-74 ، ليفي بروفنصال : "مؤرخو الشرفاء" تعريب عبد القادر الخلّادي 1977/1397، ص : 84-85 .
- (6) عن مخطوطة لاختصار "الجمان في أخبار ملوك الزمان" لسيدي الحاج محمد الشطيبي من أرشيف فيينا. بعث لنا بها مشكوراً ذ. السيد عبد الرحيم بنموسى، سفير المغرب لدى النمسا .
- (7) ابن زيدان : "إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس"، تقديم د. عبد الهادي التازي، ج 4 ص 100-105 مطبعة إيديال ، البيضاء 1985. د. التازي : "التاريخ الدبلوماسي" للمغرب 2 ، 186 ، رقم الإيداع القانوني 1986/25. ابن زيدان : "المنزع اللطيف في مفاخر المولى إسماعيل الشريف"، تقديم وتحقيق د. عبد الهادي التازي، مطبعة إيديال.

(8) نقول فيما يتصل بالقبائل العربية إن بلعياشي تناول عدة موضوعات استطرد بذكرها إيماناً منه بأنها تغني الموضوع، مثلاً ما يتصل بعلاقات المغرب مع المشرق، وما يتصل بفتترات انتقال الحكم من دولة إلى دولة وما ينشأ عنه من تحولات واضطرابات، وما يتصل بتحرير الثغور المغربية وهو موضوع هام جداً وما يتعلق بمصير بعض الموريسكوس (أفوغاي مثلاً) وما يتصل ببعض المنشآت ... "الاستقصا"، 6، 74.

(9) طبعة دار الكتاب اللبناني 1983 مجلد 2، 25 وما بعدها .

(10) نشر ليفي بروفنصال، دار المعارف، مصر 1948، ص 7، 8 .

(11) الشطيبي : "الجُمان" مخطوطة المكتبة الوطنية ، فيينا، سألقة الذكر...

(12) د.عبد الهادي التازي : "التاريخ الدبلوماسي للمغرب"، ج 4 ص 7 وما بعدها .

(13) يذكر ابن خلدون عن أسباب دخول الهلاليين إلى إفريقية حكاية لها صلة بالجازية أخت شكر ابن أبي الفتوح. (ابن خلدون، ج 6 ، 38 ، طبعة بيروت 1983) .

(14) د. عبد الهادي التازي : «التاريخ الدبلوماسي للمغرب»، 5، 189-200، رقم الإيداع القانوني 1986/25، مطابع فضالة، المحمدية .

(15) «مجموع رسائل موحدية من إنشاء الدولة المؤمنية»، إصدار ليفي بروفنصال، الرباط 1941 ص 26 وما بعدها .

(16) «مجموع رسائل موحدية»، ص 113.

(17) «تاريخ المنّ بالإمامة على المستضعفين»، تحقيق، د. عبد الهادي التازي، طبعة الثالثة، بيروت 1987، ص: 90.

(18) د. عبد الهادي التازي : «التاريخ الدبلوماسي للمغرب»، ج 6 ص 29 وما بعدها، رقم الإيداع القانوني 1986/25، مطابع فضالة، المحمدية .

(19) «المنّ بالإمامة»، المقدمة 45، النص : ص331-341-342-344-345.

(20) عندما تحدّث المؤرخون عما عرف به العرب من تنقل أثناء الفصول بحثاً عن المرعى تذكروا «الشاوية» أهل القيام على الشاء، فلأي قبيل عربي ينتسبون ..؟ إنهم لا يختصون بنسب بعينه فيمكن أن يكونوا من سليم وهلال والمعقل - ابن خلدون - بلعياشي .

(21) لا ندري هل ما إذا كانت هناك صلة للزكندري هذا بالزجندري الذي كان قاضياً بسببته عند زيارة ابن بطوطة لها. أنظر تحقيقنا للرحلة، ج 4 ص 374، تعليق 53، نشر أكاديمية المملكة المغربية .

(22) ابن أبي زرع : «الأنيس المطرب»، مطبعة الأزرق الحجرية، سنة 1303/188، ص 164

(23) ابن زيدان : «الإتحاف» مصدر سالف الذكر، ج، 1 ص 11 و ص 322 .

(24) أخذ سُقَيْن عن أصحاب ابن حجر والْقَلْقَشْنَدِي والسَّخَاوِي... ودخل السودان فتزوج هناك قبل أن يعود إلى مدينة فاس عام 924 هـ، حيث تولى التدريس والإفتاء والإمامة في جامع الأندلس، وقد عرفنا من تلامذته القاضي الزَقَّاق (961)، والعلامة المنجور (995)، أستاذ الشيخ الشهير مولاي عبد الله بن علي بن طاهر الشريف الحسني السجلماسي المدغري الذي كان له دور هام مع مطلع الدولة العلوية الشريفة .

(25) أخذ أبو الحسن عن الشيخ المنجور وأخذ عنه العربي الفاسي، وكان يسكن بقلب فاس بدرب عبد الكريم، طريق الشرايليين حيث أسكنه السلطان أحمد المنصور الذهبي.

(26) من أعجب ما يروى حول اتصال بني سويد بالدولة المرينية أنه في أثناء الصراع بين أبي الحسن وابنه أبي عنان على السلطة، حدث أن انحاز عريف لأبي عنان، بينما راح ابنه وانزمار مع أبي الحسن، فنهى الوالد ولده عن البقاء مع أبي الحسن مهدداً إياه بالإيقاع بابنه عنتر ! الأمر الذي جعل وانزمار يسلم في أبي الحسن ليعود إلى والده وولده !

(27) كل زوار مدينة فاس يقصدون ضريح إدريس الثاني ليستحضروا تاريخ مولد الدولة المغربية على يديه، ولكنهم قد لا يرفعون بأبصارهم إلى السقف ويذكرون القبة الهندسية العظيمة التي تعلو ذلك الضريح، وهي من إنشاء الأميرة السويدية الست حليلة التي شيدت إلى جانب القبة الجامع الذي شرفت به مدينة فاس . كانت حليلة إلى جانب أنها ربة بيت، تسهم في التخفيف من أعباء زوجها، وهكذا وجدناها تشرف على رواتب الجيش وعلى هدايا الأشراف وصلات العلماء طوال العام على ما يذكره بلعياشي في البستان.

